مبالغ طائلة ، وفى أحيان كثيرة كان يستخرج الجواهر الثمينة التى أودعها عملاء البنك فى خزائنه رهنا للقروض ثم يضع مكانها جواهر زائفة ، ويحصل بهذه الوسيلة على عشرات الملايين .

والآن ، لنر كيف اكتشفت هذه الاختلاسات الهائلة .

ومن المحقق أنه كان من المستحيل ان يمضى ستافسكى فى جرائمه طول هذه المدة ، وعلى هذا النحو المدهش لولم يكن مستظلا بحماية الرجال المسئولين آمنا مطاردة البوليس والقضاء . على ان حادثا فجائيا أدى الى اكتشاف الحقيقة المروعة ، وهو أن احدى شركات التأمين ، كانت قد اشترت من السندات الزائفة ماقيمته ثمانية ملايين حل أجل استهلاكها فى اغسطس الماضى ، فتقدمت الى البنك بطلب هذا المبلغ فطلب مدير البنك تسييه رجل ستافسكى وشريكه مهلة للدفع ، فرأت الشركة من باب الاحتياط ان توقع حجزاً على بعض المبالغ المطلوبة للبنك ، فدهش مراقب الضرائب فى بايون لهذا الحادث وارتاب فى الامر لأنه لايعقل أن مصرفا كبيرا محترما مثل بنك بايون يتوقف عن الدفع بهذه الصورة ، وتصادف عندئذ أنه فحص بعض السندات المسحوبة فلم يعثر لها على أثر فى سجلات البنك أو حساباته ، فأخطر الجهات المختصة ، وكان ذلك فى يوم ٢٣ ديسمبر الماضى . ولما رأى مدير البنك تسييه أن الامر قد افتضح ذهب الى مدير البوليس ، واعترف له بطرف من هذه الجرائم ، وفى الحال تدخلت النيابة ، وقبض على تسييه وبدأ التحقيق فى الفضيحة الكبرى

وسنرى فى فصل تال ماذا كشف التحقيق عنه ، وماذا كانت خاتمة هذا الافاق البارع وماذا كانت آثار هذه الجرائم المثيرة فى سير الحياة الفرنسية العامة .

محمد عبدالله عنان

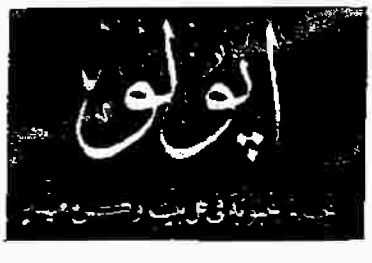

الأدب والخلود

بدت فى أفق الوجود منذ أقدم عصوره أنواع كثيرة من الحيوان والنبات ، ظلت تتصارع مع إرادة البيئة وعوامل الموت والحياة حقبا طوالا ؛ حتى فرق بينها قانون « تنازع البقاء » بكلمته الحاسمة ، فسكنت رحى الحرب وأسفرت تلك الوقائع عن خطوط متباينة لكل نوع منها عن الآخر : فمنها ماكان ضعيف الايد فقير العدة لم يستطع أن ينجو من نار هذا التنافس المستعر فالتهمته ألسنتها وأسدلت على كيانه وذكراه حجاب العدم إلى الأبد ، ومنها ماجاوزته هذه النيران وقد أبقت منه هيكلا هشيما أو بقايا منثورة لم تزل مطمورة تحت أطباق الثرى حتى عثر عليها رجال الآثار والحفريات فنشروها فى صدور المعارض والمتاحف ، ووهبوها بعث جديداً للحياة الذكرى . وكان هنالك غير هذين ماوهبته الطبيعة أمضى الاسلحة للوقاية أو السطوة ؛ فكان هو الصامد للهول الصائل فى المجال حتى خرج مظفرا منصورا رافعا لواء الحياة !

كذلك فى أفق الفنون والآداب ترى مثل هذا الصراع العنيف دائر الرحى بين أنواعها المختلفة ، وبين مؤثرات العدم والوجود ، كأنها كائنات حية شاخصات الجثمان تحكم بينها قوانين النشوء والبقاء . ولئن كانت حرب الأنواع المادية قد خمدت نارها منذ آماد لتؤول إلى نضال آخر بين فصائل النوع الذى ظفر بالبقاء ، فان صراع منتجات العقل وبخاصة ماكان فى دائرة الفن والأدب لما يزل حامى الوطيس مشتعل اللهيب منذ أخذ الفكر وأخذت العاطفة تفتح عيونها على الكون ، وتتعرف مافيه من ظواهر وأسرار إلى اليوم . وسيظل هكذا يزداد أواره احتداما كلما نما العقل واتسعت شعاب الحياة أمام العواطف ، وكلما ارتقت مثل الانسانية وآمال المجتمعات والأفراد فى سماء الحضارة الرحيبة الآفاق ؛ فكل أدب واهن القوى أو فاقد الأداة لابد أن يكون مصيره كمصير ذلك الكائن الضعيف إما فناء أبديا أو فناء يتخلله البعث للذكرى فى خزائن الكتب ، أو شوارد التاريخ أو على جدر المعابد ، وكل أدب موفور القوة موهوب المناعة لابد أن يغالب الزمان ويبقى على الحدثان .

هكذا توزعت الجهود على أنواع الأدب فى كل عصوره الماضية

وكذلك سيبقى نظامها ؛ وقد تكون تلك الظاهرة ملحوظة فى جملتها قريبة الادراك بشكل عام عنـــد من ينتبهون إلى حقائق الموت والحياة فى المعنويات كما يعرفونها فى الحسيات ، ولكن الغموض وسوء الادراك إنما يقعان فى تحديد معانى هذه الحقائق ؛ ودقة الاحاطة بمدلول كلمات الضعف والقوة والغلبة والهزيمة ؛ وفى العثور على محور التنافس والنزاع ؛ وكشف القوانين التى تعمل من وراء هـذا كله لترجيح كفتى الفناء أو الخلود إحداهما على الأخرى . فكثير من متناولى الأدب من يقف اليوم خاشعا أمام تراثنا الأدبى القديم ؛ مستلهماً نفحات الخلود من سطوره وكلماته لانه قديم باق منذ مئات الأعوام إلى اليوم برغم الغير والاحداث ؛ دون أن يفرق بين أدب لا يجدر به أن يحفظ إلا ليؤدى مثل وظيفة تلك البقايا الحفرية تسجن فى غرف المتاحف فنذكر بنوع باد وانقرض ؛ وبين أدب خالد وثيق الصـــلة بعناصر الحياة فهو باق بأصله وأثره ولو اندثرت ألفاظه ؛ وليس من سبب لهذا الخلط المختلط الواهم إلا عدم الاحاطة بدائرة الخلود وتصور الاسس التى يشاد عليها صرحه وما يؤدى إليه هذا الابهام من قصور عن إدراك الفارق الكبير بين مدلول كلمتى « الخلود » و « البقاء » فى العرف الادبى الدقيق .

ليس الخلود فى الأدب هو مجرد البقاء ، وإن أوضح ما يبدى الفرق بينهما هو ذلك التباين الذى أدركناه بين بقاء الآثار والعاديات وبين بقاء الكائن الحى الخالد ، ويمكن أن يعبر عن تلك الميزة الكبرى بأن خلود هذا الكائن إنما هو بقاء مقرون بالتأثير والتأثر ؛ أو هو بقاء قابل فاعل ؛ أو هو الحياة : فالاثر الادبى كالاثر المـادى سواء فى أن كلا منهما لا تتحقق له صفة الخلود الا اذا امتاز بصفات وخواص تؤهله لان يظل مشتركا مع دورة هذا الكون الحى بآثار تحدثها فتزيد فى قوة تلك الدورة . أو بطواعية ولطف تقبل لما يوحى به الكون من غايات . وما يتطلبه من نظم ، وبقدر ثروته من هذه الخصائص تتعين له منزلته من درجات الخلود المتفاوتة السمو ؛ غير أن الكائن المـادى يؤدى وظيفة حياته هذه بالفعل أو الترك ، والادبى انما يؤديها بما فيه من أفكار ووجدانات .

واذا كانت مؤهلات الخلود للنوع المادى هى فى هذا التكوين الدقيق المنظم من عناصر متجانسة متوافقة ، انتخبت من جنس عناصر الكون الخالد ، لتشترك باتحاد ذراتها واتساق تركيبها فى تأدية سلسلة مترابطة من الغايات ، حتى تنتهى الى الغاية الكبرى من تكوين الكائن كله بجميع أجهزته وأعضائه ، وهى الاتصال المباشر بدورة الحياة بالنشاط والحركة والعمل والانتاج والاهلاك والارادة بنوعيها من سلب وايجاب ـ كذلك مؤهلات الخلود للنوع الأدبى إنما هى فى تكوينه من لباب من المعانى ، مأخوذ بمهارة من صفحة الكون الزاخر بالحقائق والاحلام ، منسق العناصر والأجزاء بدقة وتفنن وابتكار ، حتى يبدو فى شكل وحدة متلائمة كلها أفكار ووجدانات ، تؤدى غايتها العظمى ، مؤثرة تارة فى الحياة ببعث الحق فيها والخير والفضيلة والكمال ، أو متأثرة بها تارة أخرى بتقديس ما بها من جمال وعبادة ما وراءها من أسرار وامتزاج بما فيها من روح !

ذلك هو شرط الخلود بحدوده العامة ، وليس هو قيدا نتكره ونمليه نحن على الأدب وأهله ، وإنما هو فيما نرى قانون ثابت أملته طبيعة الحياة من قبل على الكائنات المادية ، ونفذت أحكامه عليها بعنف وقسوة ، وهى تمليه اليوم وتطبقه على الكائنات المعنوية بعد ان اشتد تنافسها وكثرت أنواعها ، وبعد ان أصبح للآداب كيان ظاهر فى الحياة الانسانية يسعى إلى مثل ويتجه إلى مقاصد ، أو كما يقول النحاة بعد أن أصبح « عمدة » لا « فضلة » .

ولقد ظهرت آثار هذا القانون بجلاء منذ بضعة قرون فى الحياة الأدبية لأمم اوربا الراقية حين أخذت آدابهم تنمو وتستقل وتقوى شخصياتها وتتحدد غاياتها ، فنشأت عندهم مذاهب النقد وطرائق البحث التى تعمل كلها فى ضوء هذا القانون حتى لا تمنح رتبة الخلود إلا لما احتوى على عناصره وتحقق فيه شرطه ، وها هو ذا تراثهم الأدبى تجد فيه سجل الخلود منشورا واضحا لا يجمع إلا أمثال أسماء شكسبير وملتون وشلى وبيرون وتنيسون وسكوت فى انجلترا وموليير وروسو وفولتير وهوجو فى فرنسا ولسنج وشلر وجيته فى ألمانيا ، وغيرهم ممن يضاهيهم أو يقاربهم مرتبين فى درجات مختلفة من الخلود بحسب ما حاز كل منهم من عناصره . أما نحن فلا تزال حياتنا الأدبية ناشئة حديثة ، وقد كانت إلى عهد قريب حائرة ضعيفة الادراك لا تدرى أى سبيل تسلك ولا على أى مرفأ ترسو ، لأن الشعور بالحياة كان ضيق الدائرة ضئيلا ، وكان سوء التقدير وفساد الفهم لغايات الأدب ومعانى خلوده يحاصر هذا الضيق ويأبى عليه أن يكتسب مرونة أو اتساعا . ولكنها الآن قد أخذت تنهج طريقة

أختها الأوربية فتفتح عينيها على الحياة وترشف من رحيق أسرارها ومثلها ، معتزة بوجودها ، مكتسبة كل ما يزيدها نموا وارتقاء ، وبهذا حق عليها أن تدفع ثمن هذه الحرية غاليا ، وتتقبل راضية أو كارهة قانون الحياة الدائم ، فلا خلود الا لمن ظفر بشرطه وأوفى على غايته .

نعم لم يعد يسيرا فى هذا العصر لأثر أدبى أن يظفر بالخلود ، لأن التنافس يزداد شدة كلما تقدمت الحضارة خطوة ، ولأن ذوق الجمهور قد أخذ يدق ويسمو حتى ليكاد يصبح ناقدا عالما ، ووجدانه قد بدأ يزخر بالآمال والعواطف حتى يأبى الا أن يحتسى كأس الحياة حتى الثمالة ، وإرادته أيضا قد غدت حرة قوية مؤثرة حتى لاتقنع إلا بنشدان المثل العليا . وهذه كلها نتائج طبيعية لنشر وسائل التهذيب من تعليم وصحافة وأقاصيص وتمثيل وخيالة ، ولحياته بروح الدساتير الحديثة التى تكفل له الحرية وتسيغ له الاشتراك فى الحكم والدولة ، ولشدة امتزاج الشعوب اليوم بعضها ببعض وسرعة تبادل الأفكار والمشاعر ، فهل يقنع هذا الجمهور الطامح المهذب إلا بأدب يمثل قانون الخلود فقرة فقرة ؟

لابد إذن لوجود هذا الأدب السامى من أديب يملك بفطرته نفسا شاعرة نبيلة دقيقة الحس كميزان الذهب ، تتلقى الالهام والوحى من محيط الوجود كما يتلقى الجارس « الراديو » موجات الأثير حاملات الأغانى لايشعر بها غيره ، وعقلا صافيا كالعدسة المكبرة تواجه الشىء فيتجلى فيها بخفاياه وحذافيره ، قد صقلته التربية ووسعت أفقه التجارب والثقافة المحيطة ، وقدرة ماهرة على التنسيق والتنويع وحسن الصياغة بابتكار واستقلال .

وندع الآن مشكلة اللفظ وما تنتجه من مسائل الفصاحة والبلاغة فانما نحن نتحدث عن الجوهر لا عن العرض ، ونبحث فى القانون الثابت المطرد لا الأمر العارض النسبى ، ولسنا نعنى بذلك أن نهمل البتة ناحية اللفظ فنكسو الحسناء الجميلة ثوباً خلقا مهلهلا ، بل الذى إليه نقصد أن سر خلود الأدب اصالة إنما هو فى سناه ، ثم تأتى مسألة اللفظ بعد ذلك مختلفة باختلاف اللغات متفاوتة بتفاوت الأذواق ، فكم فى اللغات العامية من معان رائعة حية الأثر تتداولها الألسنة رواية لاتدوينا ، وبداهة لاتعليما ، وهى خالدة على مر الأجيال فى معزل عن اللغة الفصحى بل فى نفور منها أن تشوه جمالها ، وكم فى اللغات الأعجمية من آثار خالدة أيضاً لم تدرك لغتنا الفصحى شأوها بعد ولا يضيرها أن تؤدى برطانة الأعجام ! فمسألة الخلود فى الحقيقة مسألة المعنى وهى الأمر الثمين النادر ، أما اللفظ فيسير الثمن بتعلم اللغة والإطلاع على أساليبها . وكأننا بهذا نعكس رأى علماء البلاغة الأقدمين إذ كانوا يقولون : إن المعانى منثورة فى الطريق يعرفها الفصيح والمفحم والعالم والأمى والبدوى والحضرى ، ولكن الفرق كله بين هؤلاء فى اختيار اللفظ وحسن التركيب !

ولعمرى ما أشبههم فى ذلك بمن يقولون إن الذهب والفضة مطروحة فى الطرقات ، ولكن المشكلة المعضلة حقا إنما هى : كيف يحمل الفقير تلك الكنوز ؟ !

وبنظرة نردها بين غاية الخلود البعيدة المدى . وبين أدبنا الحديث ، نستطيع أن ندرك كيف ينحرف هذا الأدب عن الهدف الذى يجب أن يقصد ؛ ثم إذا تتبعنا خط الميل عن الجادة المستقيمة لم نلبث أن نقف على نقطة الانحراف أو رأس المفترق ، وليست هى فيما أرى إلا حيث يتدفق سيل التقليد الجارف ، فيكتسح أدبنا أمامه ويحول بصره عن الهدف الى صحراء العصور الخالية ، ولقد سار أدبنا منذ نشأته فى هذا الطريق المنحرف مراحل واسعة ، ثم جاء الأدباء المجددون والشباب المثقف الحديث فحاولوا أن يمسكوا بزمامه ويردوه الى غايته ، فاذا به يستقيم ويعدل سيره فى أنوارهم وهو حقيقة يوشك أن يعتدل . بيد أن انكساره القديم قد ترك فى بصره بعض الزيغ وفى هيكله بعض الاعوجاج !

كانت الروح الفردية هى عماد الأدب القديم ، وما زالت هى أيضا عماد أدبنا الحديث ، فكما كان رجل الصحراء ينشد أدبه الغنائى فى حدود نفسه معتزا بشخصيته دون غيرها ، حين يصف حبه وهيامه وحوادث غرامه أو حين يصف ناقته وفرسه أو يفخر بشجاعته وبأسه ، كذلك نحن لانبرح مقيدين بخطته مقتفين أثره لانعنى أكثر ما نعنى إلا بالتغنى بهذه الأغراض الفردية الضيقة من حب شخصى وحزن وسرور ورثاء ومدح لاتعدو حدود النفس ، ولست أدرى كيف نمهد لنا عذرا عن هذه الأثرة التقليدية إذا وضعت أمامنا أعذار الرجل الصحراوى وقد كانت طبيعة بيئته ونظام حياته لايسمحان ببناء مجتمع مترابط ممتزج بل تلحان على كل فرد أن يكون هو مجتمع نفسه وحكومة شخصه ؟

وهل تلك الحياة المفككة هي حياتنا اليوم ؟ أليست دعامة هذا العصر المتحضر هي قوة روح الاجتماع وتشييد بناء الوحدة وتربية الفرد ليفنى فى المجموع ؟ إذن فلن ينطلق أدبنا من رجعيته إلا إذا جارى العصر وساير الحياة فاندمج فى المجتمع بما فيه من سياسة ودين وتربية وأخلاق وغاص إلى أعماقه وترجم على أمواجه ؛ متشرباً العواطف الانسانية لا على أنها نزعات فردية من شخص لآخر ، ولكن على أنها ظواهر اجتماعية لها آثارها فى المجتمع ولها أحوالها وخواصها المتأثرة به المتغيرة بتغيره ، وناظراً منصتاً لأى منطقة شخصه ولكن فى رحاب المجتمع الطليق يراه كيف يجد ويلعب وكيف يفكر ، وكيف يشعر ، ويسمعه بأى لحن ينطق ويغنى ويئن ويهتف ، ضاربا معه على أوتار أفراحه وأحزانه ؛ صاعدا إلى سماء الآمال أو منحدرا إلى أرض الهوان ، صارخا فى ثورته ، نائما فى رقدته .

وكان الادب القديم نسيجا من خواطر وأحاسيس هى بنت ساعتها ، ووليدة حادثتها ، توضع مقراضة مسرودة دون أن ينظمها سمط من العلم أو رباط من العقل ، وما زال أدبنا الحديث أيضا نسيجا من مثل هذه الخواطر والاحاسيس ؛ لا يحاول أن يتقرب الى العلم أو يسامح الفلسفة أو يمد يده الى علم النفس ، بل كثيراً ما يقف منها موقف الاضداد ؛ فاذا كان منشأ هذا النقص عند أدباء القرون الماضية هو فقرهم من هذه الثروة الفكرية العظيمة ؛ وفهمهم الادب على أنه منفذ للشعور الفردى الوقتى كيفما كان لا كما نفهمه نحن اليوم من أنه دعامة من دعائم الحضارة وأساس الاجتماع المهذب الراقى — فبأى سبب غير عماية التقليد نعلل وجود هذا النقص فى أدبنا إذن ونحن فى عصر يفهم الأدب على هذا الوجه ، ثرى بما فيه من منتجات الفكر ؟

ولعل هذه الروح الجديدة التى نحاول أن نشربها أدبنا ليتصل بالعلم والاجتماع . تدل بنفسها على أنها لا تستطيع أن تحيا وتنمو وراء هذه الاسوار الضيقة التى ظلت تحاصر الادب القديم : أسوار الشعر الغنائى والحكم المقتضبة والامثال الموجزة ، والفصول الكتابية والاراجيز النظمية تعقد ليان الاخلاق والنصائح والعظات فى قواعد وقضايا آخذ بعضها برقاب بعض . وإنما هى تريد قبل أن نفكر فى استلهامها أن تهدم هذه الاسوار ونخرج إلى ميدان القصة والملحمة والرواية الرحيب الجوانب فتثر فى فضائه ما نريد من حكم ووصف وعظات وما نشاء من وحى الفكر والوجدان .

أجل ، فان ذروة الخلود سوف تدنو من صروح القصة والرواية وما حكاهما ، وسوف تكون هذه الانواع أقوى أنواع الادب وأكبرها اثرا فى تأدية وظائفه فى الحياة الانسانية بين الجماعات والافراد ، وستندمج فى ثناياها تلك الانواع الصغيرة التى لا تحتوى الا على خطرات محدودة من مشاعر الحب والانتقام والهجاء والفخر والحماسة والمثل والوصية والمراسلة وما جرى مجراها ، فلا يبقى منها مستقلا إلا ما ترشحه رقة نغماته ووحدة موضوعه وصدق شعوره ليجيب بعض نداءات الحياة القصيرة التى لا تحتمل أعباء القصة ولا تستطيع تغذيتها . وفيما خلا ذلك تنهض القصة بدعوات الحياة الكبيرة وتخوض معارك الاجتماع وترتوى من منابع العلم فتصبح صورة صادقة ناطقة للانسان والكون وما بينهما من أسباب وصلات .

وحرى بنا الآن وقد جرت معنا ألفاظ الغاية والهدف والقصد الى جانب الأدب أن ندفع ما قد يدور بخلد ظان من أننا نريد أن تكون الغاية هى التى تخلق الأدب وتتحكم فيه ، فلا يكتب الأديب أو ينظم إلا لغاية قد تعمدها ونصبها أمامه ، فان مآل هذا أن يصبح الأدب صناعة لا فنا وأن يصير الاديب مصنوعا لا مطبوعا ، وانما نحن ننسب الغاية الى الادب على سبيل المجاز ، ونريد فى الحقيقة أن يصدر الادب عن نفس تشربت من قبل بالغايات والمبادىء حتى ذابت فيها وتحولت الى وجدان حى ورغبة فنية دافعة ، فهى لا تكتب بعد ذلك ناظرة الى غاية منفصلة ، وانما هى تعبر عن شعورها المتصل بها وفكرها الذى أصبح ملكا لها إرضاء لطبيعتها الفنية وفطرتها الادبية ، فكأن للأدب غاية لا ترى إلا بعد صدوره بالفطرة .

وللخلود فى الادب مناطق تختلف سعة وامتدادا . فقد يسرى حتى يعم العالم بأجمعه ويصير أدبا عالميا . وقد يقتصر على أمته وشعبه فيكون أدبا قومياً . وحولهما درجات ، والسر فى هذا انما يرجع الى اختلاف موضوعاته : فاذا كان متناول الادب من الانسانية من حيث هى لا باعتبار الاجناس والانواع فهو جار مع النفس الانسانية فى كل مكان . وكذلك اذا كانت وجهته الكون والطبيعة والمعانى الكلية التى لا تحدها الامكنة ، ولا تطغى عليها البيئات . ومن أظهر الامثلة لذلك أدب المعرى وابن الرومى والخيام فى